مراجعة لكتاب

منظومة القيم المقاصدية وتجلِّياتها التربوية*

تأليف: فتحي حسن ملكاوي**

مصطفى فاتيحي***

محمد قاسمي****

يُعَدُّ الحديث عن القيم من الموضوعات الـمُهِمَّة التي تَتَّسِم بقدر كبير من الراهنية والجاذبية؛ نظراً إلى تعالقه مع حقول معرفية عديدة. ولا شكَّ في أنَّ تناوله من خلفية مقاصدية هو من آكد الدواعي للوقوف مَلِيّاً معه، ومن الـمُحفِّزات الرئيسة على التأمُّل الـمُستبصِر لعناصره وزواياه. وهذا ما قام به الدكتور فتحي حسن ملكاوي في مُؤلَّفه الأخير "منظومة القيم المقاصدية وتجلِّياتها التربوية"، وهو صادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام 2020م، ويقع في (278) صفحة.

---

* ملكاوي، فتحي حسن (2020). **منظومة القيم المقاصدية وتجلِّياتها التربوية**، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

** أستاذ جامعي أردني، دكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم، باحث في المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

*** دكتوراه في الأصول والتفسير، جامعة القاضي عياض، مراكش، 2019م، أستاذ الأكاديمية الجهوية مراكش أسفي، المغرب. البريد الإلكتروني: mustfatihi1981@gmail.com

**** دكتوراه في الفقه والأصول، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، 2019م، أستاذ أكاديمية درعة تافيلالت، المغرب. البريد الإلكتروني: Kassimima2@gmail.com

تم تسلُّم المراجعة بتاريخ 12/ 2/ 2020م، وقُبِلت للنشر بتاريخ 20/ 10/ 2020م.

فاتيحي، مصطفى. وقاسمي، محمد (2021). **قراءة في كتاب: منظومة القيم المقاصدية وتجلِّياتها التربوية. تأليف: فتحي حسن ملكاوي**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 27 العدد 102، 263-280.

DOI: 10.35632/citj.v27i102.5989

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي 2021 ©

وممّا زاد الكتاب أهميةً التكوينُ الأكاديمي لـمُؤلِّفه في العلوم الاجتماعية والإنسانية والتربية، واهتماماته الـمُتعدِّدة في مجالات معرفية وازنة؛ فهو تربوي وأستاذ جامعي أردني، يحمل شهادة الدكتوراه في التربية العلمية وفلسفة العلوم من جامعة ولاية ميتشغان الأمريكية، وشهادة الماجستير في علم النفس التربوي، وشهادة البكالوريوس في الكيمياء والجيولوجيا.

هدف الكتاب

سعى الـمُؤلِّف إلى تطوير الأفكار التي كانت مُجرَّد حواشٍ وشروحاتٍ لِـما تناوله الدكتور طه جابر العلواني في كتابه "التوحيد والتزكية والعمران: محاولة في الكشف عن القيم والمقاصد العليا الحاكمة". وتمتدُّ فكرة الكتاب إلى سنوات خلت، حين كان الدكتور ملكاوي مهتماً بالنظام المعرفي الإسلامي الـمُتعلِّق بالأسئلة الكبرى والنهائية عن الله والكون والإنسان؛ فقد شكَّلت منظومة القيم الحاكمة (التوحيد، والتزكية، والعمران) لديه نسقاً أراد عن طريقه إثبات تأثيرها الإيجابي في تربية الفكر والنفس والوجدان، وبناء الشخصية الإنسانية في أبعادها الـمُتعدِّدة، وتشييد نُظُم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والتطلُّع -في الوقت نفسه- إلى ثمارها الإيجابية على المستوى الحضاري، بوصفها قيماً إنسانيةً عالميةً، فيعمُّ نفعها جميع الخَلْق، وعناصر الكون ومفرداته.

استلهم الدكتور ملكاوي منهجية الدكتور العلواني، ونسج على منواله؛ إذ قال في ذلك: "والشيخ العلواني بعقليته الشرعية النقدية يريد هذه المنظومة مدخلاً منهجياً لجهود تنقية التراث الإسلامي ممّا اختلط به من تراث أهل الكتاب في وقت مُبكِّر، ثُمَّ من تراث الأُمم الأُخرى بعد ذلك، ويريدها مدخلاً مقاصدياً لمراجعة العلوم النقلية، وقضاياها التاريخية والجغرافية." وهو يرى أنَّ هذه المقاصد العليا الحاكمة يُمكِن أنْ تساعد أيضاً على تطوير نظرية معرفية عامة في جميع علوم الشريعة، وكذا العلوم الاجتماعية.

ثُمَّ إنَّ الدكتور ملكاوي وإنْ كان مُقتفِياً أثر الدكتور العلواني، فإنَّه سعى إلى الإضافة والتطوير والتتميم بعد الاستيعاب والتحليل والتفسير؛ إذ قال: "لقد كانت مادَّة هذه الفصول في الأساس

هوامش على عبارات الدكتور طه العلواني الخاصة بمنظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران، التي ردَّدها في كثير ممّا كتب، لكنَّه لم يُفصِّل فيها تفصيلاً يشفي الغليل."

حاول الكاتب أنْ يضفي بُعْداً مقاصدياً على الثلاثية المذكورة آنفاً في أفق اعتبارها مُوجِّهات في الميادين التربوية، يهتدي بها الـمُربّون، وصاغَةُ المناهج التعليمية؛ فهي قمينة بتسديد الوجهة، وإنهاج مسارات الاشتغال؛ بُغْيَةَ الوصول إلى فلسفة تربوية راشدة، بوصف المجال التربوي مجالاً محورياً في تفعيل منظومة المقاصد؛ فهو الأرضية والـمُنطلَق لتحقيق النهوض الحضاري المنشود.

وقد رأى الـمُؤلِّف أنَّ منظومة المقاصد قادرة على تصحيح المسار الذي هيمن على النُّظُم التربوية والسياسية والاقتصادية والإعلامية الحديثة، والحيلولة دون مزيد من المآلات السلبية الناتجة من الفصام بين المعرفة والقيم.

ومن ثَمَّ، فإنَّ الـمُؤلِّف تطلَّع إلى الانعتاق من شرنقة الاجترار والجمود اللذيْنِ ظلّا يحكمان نمط الاشتغال في ميدان القيم والمقاصد، وحاول أنْ يتقدَّم خطوات إلى الأمام بطرح مُقترَحات عملية، وأوَّليات قابلة للتطوير والاستدراك.

قصد الـمُؤلِّف إلى تحديد دلالة القيم الثلاثة من القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، وهو أمر له دلالته وفحواه؛ لأنَّه سعى إلى بناء المفهوم من منابعه الصافية، بعيداً عمّا عَلِق به من فهوم وشوائب بحسب السياقات التاريخية والاجتماعية، ورام صياغة الكليات الناظمة عن طريق البحث في جذورها الأصلية.

وهو إذ نحا هذا المنحى، فإنَّه أراد أنْ يُبرهِن على بُعْد نظرٍ وسعة أُفقٍ؛ ذلك أنَّ الإغراق في التفاصيل والجزئيات يُفقِد القدرة على النظر الكلي الـمُجمِّع، ومن ثَمَّ تكون الثمرات والنتائج مُتناقِضة ومُبعثَرة.

سياق تأليف الكتاب

يأتي هذا الكتاب في ظروفٍ نوعية وحيثياتٍ خاصة، تتدافع فيها المشاريع الفكرية، والرؤى الثقافية، والتصوُّرات الإصلاحية؛ فالوجهة تبدو واحدة، والأساليب مُتعدِّدة، ومن ثَمَّ يفضي هذا التعدُّد إلى مساءلة الإنتاجات في أُفق تحقيق التلاقح المنشود والتكامل المفيد.

ولا يخفى اليوم الخلافُ الواسع والهُوَّة الفاصلة بين الفاعلين والباحثين وروّاد المذاهب والاتجاهات في ميدان القيم؛ إنْ على مستوى المفهوم، أو على مستوى المصدر. وهذا الخلاف يوجِب الحفر المعرفي؛ بُغْيَةَ الصياغة الـمُحكَمة للنماذج الحاكمة، والأُطر المرجعية الناظمة والـمُوجِّهة؛ لأنَّ التفكير الكلي يُمكِّن من نَظم التفاصيل والجزئيات، ويَعصم من التّيه والضياع في الشوارد والقضايا المفضولة.

أدّى تجاوزُ القيم وامتهانُها إلى كوارث تجلَّت في استفحال ظواهر سلبية، وتشوُّهات في الفكر والسلوك، ولم تُجْدِ الخطابات الظرفية العاطفية وردود الأفعال السريعة نفعاً في التخفيف من حِدَّة الآثار الـمُدمِّرة. ويتواشج مع ما ذُكِر آنفاً الحديثُ الـمُسهَب اليوم عن المقاصد إلى درجة الاستسهال وكثير من الاجترار؛ ما أدّى إلى انحسار الإبداع والمعالجة الـمُثمِرة للقضايا والإشكالات.

وقد جاء هذا الكتاب ليبثَّ نوعاً من الحيوية والجِدَة على الموضوع من خلال التناول المنهجي العميق، والحسِّ النقدي المتوازن. وتأسيساً على ذلك، يندرج الكتاب ضمن الكتابات التي تعكس الانهمام بالبِنى والأنساق الفكرية الرامية إلى إصلاح مناهج التفكير، وبناء التصوُّرات الواعية التي تستشرف المستقبل، بعد الالتفات الـمُستبصِر إلى الماضي واستيعاب الحاضر.

محتويات الكتاب

ضمَّ هذا السِّفر مجموعة من القضايا والمفاهيم والمعلومات، تناولها الكاتب في مُقدِّمة، وخمسة فصول، ثُمَّ خاتمة، ولائحة للمراجع. أمّا الـمُقدِّمة فبسط فيها الكاتب رؤيته ومنهجيته في تناول الموضوع، وأمّا الفصل الأوَّل فحمل عنوان: "التوحيد"، وهو الأساس الأوَّل في منظومة القيم

العليا. ثُمَّ جاء الفصل الثاني بعنوان: "التزكية في منظومة القيم العليا"، تلاه الفصل الثالث: "العمران في منظومة القيم العليا"، ثُمَّ الفصل الرابع: "القيم المقاصدية وتجلِّياتها في التراث الإسلامي والفكر المعاصر"، في حين وُسِم الفصل الخامس بـ: "تفعيل المقاصد في التربية والتجلِّيات التربوية للقيم القرآنية العليا". ثُمَّ كانت الخاتمة التي أجمل فيها الكاتب أبرز ما توصَّل إليه، والآفاق التي فتحها عمله واشتغاله.

أطروحة الكتاب المركزية

أطروحة الكتاب تتمثَّل في محاولة اكتشاف عناصر النظام المعرفي الإسلامي الكامنة في منظومته التشريعية، ونصوص خطابه، ومقاصد علومه، بناءً على جهود الدكتور طه جابر العلواني، ورؤيته للمقاصد العليا المحصورة في التوحيد والتزكية والعمران، بوصفها قيماً حاكمةً لمجالات العلم، والمعرفة، والممارسة الواقعية للأُمَّة، إلى جانب النظر في هذه القيم بامتداداتها المرجعية في نصوص الوحي، وتجارب المدارس الفكرية التراثية والمعاصرة.

ولبناء أطروحة الكتاب، اعتمد الـمُؤلِّف على عمليتي **التأصيل والتنزيل**، فلم يقتصر على تتبُّع مفاهيم الكتاب المركزية في نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي وتجارب العلماء؛ لبناء تصوُّر أصيل وشامل لها، وإنَّما عَمَد إلى تنزيل ما توصَّل إليه من خلاصات في الموضوع على واقع الأُمَّة الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي، وذلك باقتراح سُبُل كفيلة بتحقيق رؤيته للقيم الحاكمة والعليا في مناطاتها في الواقع الخارجي؛ تفعيلاً لمضامينها المنهجية، وتفسيراً بها لقضايا مُشْكِلة في واقع الأُمَّة الإسلامية.

ويُمكِن تقسيم أطروحة الكتاب إلى ثلاثة محاور، هي:

1. تأصيل القيم العليا في الوحي وتجارب الأُمَّة.
2. رصد التجلِّيات والتأثيرات المنهجية والوظيفية للقيم العليا في التراث الإسلامي والفكر المعاصر.
3. تلمُّس أوجه التفعيل الواقعي للمقاصد الـمُؤسِّسة للقيم العليا في التجارب التربوية للأُمَّة.

سلك الـمُؤلِّف منهج التأصيل والتحليل لتحقيق أطروحة الكتاب، بدءاً بنصوص الوحي وتنظيرات العلماء في الموضوع، وانتهاءً بخلاصات كُلِّية اعتمدها في عمليتي التفسير والتفعيل. وفي هذه الأثناء، لم يتجاهل الـمُؤلِّف بأفكاره وتنظيراته ما كُتِب في الموضوع، وإنَّما صاغ الكتاب انطلاقاً من تنظيرات المرحوم العلواني صاحب الاصطلاح الأوَّل فيه، لكنَّه لم يبقَ رهيناً له في جميع تفاصيل الكتاب، بل عَمَد إلى النصوص؛ مُستنطِقاً، ومُحلِّلاً، ومُستخلِصاً، وبانياً على جهود علمية أُخرى في هذا الموضوع، شكَّلت مصادر مرجعية استمدَّ منها بعض أفكاره، ثُمَّ طوَّرها، وثوَّرها حتّى أصبحت ماثلة في هذا العمل.

وقد تنوَّعت مصادر الكتاب، فكانت جامعة بين هدايات الوحي (كتاباً، وسُنَّةً) وكتب التراث الأصيلة، اعتماداً على مُصنَّفات في المنهج والبحث، ومراجع مباشرة في الموضوع. وهذا الاختلاف في مصادر الكتاب ومراجعه زاده غنىً في مادَّته العلمية، وأكسبه أصالةً وعمقاً وانفتاحاً على مجالات قد تبدو أوَّل وهلة بعيدةً عن صميم فكرته، لكنَّها تُمثِّل امتداداً مرجعياً، فيه إشارات وإيماءات إلى موضوعه.

أفكار الكتاب الرئيسة

يشتمل الكتاب على أفكار محورية لها تعلُّق مباشر بموضوعه، ويُمكِن إجمالها في ما يأتي:

1. التأصيل القرآني والنبوي للقيم المقاصدية:

تمثَّل ذلك بتتبُّع الـمُؤلِّف موارِدَ ألفاظ القيم في القرآن الكريم والسنة النبوية. وهذا بيان مُقتضَب بذلك:

أ. مقصد التوحيد: نظر الـمُؤلِّف إلى هذا المقصد بوصفه أُسَّ المقاصد وقاعدتها التي تنبني عليها تصوُّراً وتصديقاً، فجعله في المرتبة الأُولى (ملكاوي، 2020، ص22)، وبنى عليه تصوُّره للمقصدين الآخرين. فالتوحيد "رأس الأمر كله في الإسلام"، وهو "دائماً أساس الدين عند الله، ورسالة الله إلى الأنبياء والرسل أجمعين" (ملكاوي، 2020، ص22). ومن هنا، فإنَّ النظر إلى التوحيد -بحسب

الرؤية المقاصدية والقيمية- دفع الـمُؤلِّف إلى تناول أبعاده العقلية والوجدانية وانعكاساتها العاطفية والواقعية، بما يُعَدُّ قيمةً لها أبعادها المختلفة والـمُتكامِلة في حياة الفرد والأُمَّة (ملكاوي، 2020، ص32).

وقد حاول الـمُؤلِّف استقراء موارد **التوحيد** في القرآن الكريم، وبيان طرائق التعبير القرآني عنه، مُستثمِراً ذلك في الدلالة على أنَّه أساسُ المقاصد التي من أجلها خُلِق الإنسان، وحاكمٌ للمقاصد الأُخرى، ومُهيمِنٌ على فكرة الوجود وفلسفة الحياة والمآل.

ولـمّا كانت السُّنَّة النبوية بياناً عملياً للقرآن الكريم، وتجلِّياً واقعياً لمبادئه الكبرى، فقد أشار الكتاب إلى موارد التوحيد في السُّنَّة الشريفة، وذلك بعرضٍ مُختصَر لأبواب الحديث الـمُتضمِّنة إيّاه، مُستنجِداً بالاستقراء الناقص والاستقراء التمثيلي، ومُكتفِياً بالتنويه بجهود بعض علماء الحديث في الاعتناء بالتوحيد في كتبهم الحديثية؛ انسجاماً مع قصده في بيان قيميته، ومقاصديته، وهيمنته على الفكر والحياة (ملكاوي، 2020، ص34).

ثُمَّ ميَّز الـمُؤلِّف بين موضوع التوحيد وعلم التوحيد؛ فالأوَّل له تعلُّق بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات تصوُّراً واعتقاداً، والثاني مُرتبِط بالأدوات الحجاجية التي تختصُّ بعقيدة التوحيد، في ما عُرِف باسم علم الكلام، وأصول الدين، والفقه الأكبر.

ولأنَّ التوحيد مُهيمِن على الفكر والحياة؛ فقد تعرَّض الـمُؤلِّف لبعض هذه التجلِّيات على مستويات مختلفة من الاجتماع البشري؛ إذ بيَّن أنَّ النظام الأسري في التصوُّر الإسلامي قائم على روح التوحيد في بناء الرابطة الزوجية ووظائفها التربوية والحضارية، انطلاقاً من أنَّ الأُسرة "وحدة بناء المجتمع". ولبيان مناحي تميُّز التصوُّر التوحيدي الإسلامي للأُسرة، عَقَد الـمُؤلِّف مقارنةً بين هذا النظام و"النظرية الشيوعية التي حاولت إلغاء دور الأُسرة"، وأدَّت إلى "إضعاف الروابط والعلاقات الأُسرية." وكذلك قارن بين النموذج الإسلامي والنزعة الفردانية في الغرب "التي تسبَّبت في انفراط عِقْد الأُسرة، وإيصالها إلى مرحلة الاحتضار."

وممّا ميَّز التصوُّر التوحيدي لنظام الأُسرة عن غيره من النظريات الأنثروبيولوجية "التي تنظر إلى العلاقات بين البشر في ضوء ما هو قائم بين الحيوانات"، الارتباط بالشريعة الإسلامية تصوُّراً وتنزيلاً، ومقاصديةُ قيمها الناظمة لكينونتها الـمُحقِّقة لوظائفها وأدوارها التربوية والحضارية (ملكاوي، 2020، ص57).

أمّا على **مستوى الأُمَّة**، فلا شكَّ في أنَّ التوحيد بمقاصديته الحضارية قدَّم تصوُّراً لبنائها، وعلاقاتها، وأدوار مؤسساتها وأفرادها؛ فالأُمَّة التوحيدية تقوم على "الانسجام والتلاؤم مع الفطرة، وما تتطلَّبه من علاقات المودة، والرحمة، والتكامل في المسؤوليات" (ملكاوي، 2020، ص58). وبهذا يكون للأُمَّة طابع مُتَّحِد (أُمَّة مُتَّحِدة) مبني على آصرة الدين.

ومن ثَمَّ، فإنَّ جميع أدوار الأُمَّة قائمة على مُسمّى النظام، وهذا النظام مبني على هُويَّة دينية تُنظِّم مؤسسات الأُمَّة ونسيجها الاجتماعي. وبذلك، فإنَّ الوضع الطبيعي لعلاقة الأُمَّة بالدولة يتأسَّس على أنَّ الأُولى أصل للثانية، وأنَّ الدولة لا تستمدُّ شرعيتها الواقعية والتنفيذية إلّا من الأُمَّة.

إذن، فالأُمَّة المسلمة تفرض هُويَّتُها أنْ تكون الدولة بأجهزتها ومؤسساتها مسلمة كذلك، وأيُّ تصرُّف للدولة خارج نطاق الأُمَّة الـمُوحِّدة وقناعاتها وأولوياتها، فهو تصرُّف خارج عن نطاق المشروعية المجتمعية ذات المصدرية الدينية التوحيدية.

وبناءً على ذلك، لم ينظر الـمُؤلِّف إلى وحدة الأُمَّة بوصفها مكسباً عرقياً، أو بيولوجياً، أو لغوياً، أو سياسياً، وإنَّما عَدَّها وحدةً من أصل ديني وخلقي، يقوم على الخيرية المشروطة بالإيمان والوظائف الدعوية والمجتمعية (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)، من غير إكراه، أو تسلُّط، أو تجبُّر (ملكاوي، 2020، ص60).

أمّا تجلِّيات التوحيد في **النظام السياسي**، فقد جعلها الـمُؤلِّف في تحقيق وحدة الأُمَّة؛ أيْ توحيد المرجعية والاستمداد الفكري لها، وهو تَجلٍّ يلقي بظلاله الوارفة على الاختيارات الحضارية للأُمَّة فهماً وعملاً. ومن ثَمَّ، فقد ميَّز وحدةَ الأُمَّة بثلاث خصائص: توحيد الرؤية للعالَم، وتوحيد التجربة،

وتوحيد العمل. وهي خصائص وإنْ كانت مفقودة في الواقع نسبياً، فإنَّها مَطالب يتعيَّن تحقيقها جماعياً في الأُمَّة الـمُوحِّدة (ملكاوي، 2020، ص63).

وبالمثل، فإنَّ للتوحيد تجلِّيات في **النظام الاقتصادي**، وتأثيره البيِّن في بناء النُّظُم المالية والعلاقات بين أفراد الأُمَّة ومؤسساتها المجتمعية، وغير ذلك؛ فالنظام الاقتصادي الإسلامي قائم "على مبدأين، الأوَّل: عدم شرعية قيام فرد أو مجموعة باستغلال الآخرين، والثاني: عدم شرعية قيام أيّ فرد أو مجموعة بإنشاء حصار اقتصادي على الآخرين، أو الحجر عليهم" (ملكاوي، 2020، ص66). والـمُؤلِّف هنا يستلهم تقريرات ابن خلدون القاضية بأنَّ هذين المبدأين وغيرهما سُنَن كونية واجتماعية راجعة إلى طبيعة الإنسان الـمُتَّسِمة بالمدنية، والافتقار إلى بني جنسه (ملكاوي، 2020، ص66).

والتوحيد -بوصفه قيمة مقاصدية عليا- يُؤثِّر تأثيراً مباشراً في بناء النُّظُم المعرفية وفلسفتها المرجعية التي تحكم مسارها وإنتاجها. وهذا ما أكَّده الـمُؤلِّف، وبيَّنه بالمقارنة مع الفكر الغربي المعاصر القائم فقط على الحسِّ والتجريب؛ أيْ إنَّه فكر يُقْصي التدخُّلات المعنوية والماورائية الغيبية في رسم معالم النظام المعرفي وارتباطاته العملية والأخلاقية، وهو فكرٌ نتاجٌ للصراع بين السلطة الدينية (الكنيسة)، والسلطة العلمية التجريبية (ملكاوي، 2020، ص68).

ويُمكِن إجمال قوام تأثير التوحيد في النظام المعرفي بناءً وتوجيهاً -بحسب الـمُؤلِّف- في ما يأتي:

- الحقائق الإيمانية في النظام المعرفي الإسلامي حقائق عقلانية خاضعة للنقد، والاستدلال، والحُجَّة، والبرهان.

- المعرفة في التصوُّر الإسلامي حقيقة قابلة للمعرفة، وليست حكراً على فئة مخصوصة.

- الكون في النظام المعرفي الإسلامي محلٌّ للتفكُّر والنظر؛ فهو مبني على سُنَنية مُطَّرِدة، وقوانين حاكمة.

ومن القضايا الـمُتفرِّعة عن قيمة التوحيد: مضامينُه، وتجلِّياتُه في النظام الجمالي، بوصفه خصيصة للدين الإسلامي؛ فالمسلم -في رأي الـمُؤلِّف- مارس فنوناً توحي بعمق النظرة الجمالية التوحيدية، مثل فنِّ التزيين الذي توسَّل به لإضفاء الجمال على الـمَلْبَس، والـمَسْكَن، والـمَرْكَب، والـمَجْلِس. وهي ممارسات جمالية محكومة بقيمة التوحيد، ويُمكِن حصرها في ما يأتي (ملكاوي، 2020، ص74-76):

- غياب الفنون التشخيصية هو تعبير عن التوحيد الـمُطلَق.
- طريقة الزخرفة التجريدية اللانهائية في الزخارف الهندسية والنباتية.
- التعبير الجمالي هو تعبير عمّا لا يُمكِن التعبير عنه.
- قمَّة الوعي بالجمال أنَّ الله الواحد يتعالى عن المِثْل.

إنَّ قيمة التوحيد بهذه التجلِّيات تُهيمِن على مجالات الحياة؛ فالتوحيد هو "الذي يعطي للحضارة الإسلامية هُويَّتها"، ويُمثِّل القيمة المركزية في الرؤية الإسلامية، وبهذا يكون حاكماً على مجالات التفكير والتعبير والتدبير، أو بلغة الكاتب: "من التفكير والنظر العقلي، إلى النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، إلى النسق الجمالي والتفكير العقلي" (ملكاوي، 2020، ص77).

ب. مقصد التزكية: تناول الـمُؤلِّف هذا المقصد بوصفه مفهوماً مركزياً قرآنياً لا يُمكِن الاستعاضة عنه بمفهوم آخر؛ لِـما يؤديه من معانٍ ذات حمولة قيمية ومقاصدية مُرتبِطة بـ"الإنسان الـمُستخلَف"، بما يتضمَّنه الاستخلاف من أبعاد حضارية وإصلاحية.

وقد اعتمد الـمُؤلِّف لبيان هذا المقصد على استقراء موارده في القرآن الكريم، وبيان دلالات وروده في آيه، ويُمكِن تلخيص ما نظر إليه الـمُؤلِّف في الأفكار الآتية:

- التمييز بين استعمال القرآن الكريم لمفهوم "التزكية" سلباً وإيجاباً، وذلك بتتبُّع الآيات الواردة في القسمين معاً؛ فالتزكية في الاستعمال القرآني جاءت في صورتين: تزكية مذمومة، وتزكية ممدوحة.

– تتبُّع أنواع التزكية الممدوحة في القرآن الكريم، وحصرها في تزكية المال بطرائق اكتسابه المشروعه، والوسائل والمناحي المعقولة لإنفاقه، وإخراج حقِّ المحتاجين منه، وتزكية النفس بالترقّي بها في مدارج الإيمان والعمل الصالح، وتزكية الله تعالى الإنسانَ بقبول عمله، واصطفائه في مقامات الـمُقرَّبين. ثُمَّ النظر إلى التزكية بوصفها وظيفة نبوية اضطلع بها الرسول ﷺ في جميع مراحل دعوته.

– مراعاة أنَّ السُّنَّة النبوية بيان عملي للقرآن الكريم، وتعداد استعمالات الحديث النبوي لها، وتتبُّع دلالاتها وقضاياها، استناداً إلى "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" للمُستشرِق الهولندي أرندجان فنسنك، وملاحظة أنَّ الاستعمالات النبوية لمفهوم "التزكية" لم تخرج في عمومها عن الاستعمال القرآني، إلّا في موضوع واحد، هو "تزكية الإنسان لغيره" (ملكاوي، 2020، ص93). وهذا يُؤكِّد أنَّ "التزكية" مصطلح مركزي، وقيمة مقاصدية كما سبق.

– عدم إغفال ما تداوله أهل التربية والزهد والتصوُّف والجهاد (جهاد النفس) عن مفهوم "التزكية"، وتقرير أنَّ هذا المفهوم كان مُتداوَلاً بينهم بأبعاده التربوية والإيمانية الـمُرتبِطة بتخليص القلوب من الشوائب والأدران، وارتباط قصد المسلم بالثواب الأُخروي، لا سيَّما عند الـمُتصوِّفة والزُّهّاد، مع التنبيه إلى بعض الانحرافات التي طالت المفهوم عندهم (ملكاوي، 2020، ص97).

والتزكية في بحث الـمُؤلِّف أخذت مفهوماً مُوسَّعاً؛ لارتباطها بأمرين اثنين:

الأوَّل: النفس الإنسانية؛ فلا شكَّ في أنَّ مقاربة أيّ موضوع مُتعلِّق بالنفس له مداخل وعلائق مُتشعِّبة، ومن ذلك تقسيم التزكية –بحسب الـمُؤلِّف– إلى ثلاثة أقسام، هي:

– تزكية الجسم بكل مُكوِّناته وجوارحه؛ أيْ مشاركة الجسم بكُلِّيته في البرِّ والخير والعبادة. فاليد تبطش بالخير، والرِّجل تسعى إليه، والعين تنظر إلى الملكوت، واللسان ينطلق بالذكر، وهكذا.

– تزكية العقل بوصفه "صفة تُميِّز الإنسان عن غيره من الكائنات الحيَّة" (ملكاوي، 2020، ص103). وهذه الصفة هي ما عبَّر عنه الأصوليون بمناط التكليف والمسؤولية. ومن ثَمَّ، فتزكية

العقل -في نظر الـمُؤلِّف- تعني إعماله في المعقولات، وتوظيفه في اكتساب المعارف، والتمييز بين طبائع الأشياء.

- تزكية القلب الـمُتَّسِم بكثرة تقلُّبه بين الأحوال، وبما هو محلُّ نظر الله تعالىٰ؛ فلا شكَّ أنَّ القلب تجتمع فيه الأضداد، مثل الكفر والإيمان، وتُعبِّر فيه الخواطر علىٰ اختلاف أنواعها. فتزكيته ضرورة تربوية، وحاجة عملية؛ إذ بصلاحه وطُهره تصلح الأعمال، وتطهر من علائق الرياء والفساد.

والثاني: تزكية الجماعة والأُمَّة، وهي نتيجة تلقائية لتزكية النَّفْس الفرد، الذي يُمثِّل مع غيره من الأفراد الجماعةَ والأُمَّةَ. وقد انتهىٰ الـمُؤلِّف إلىٰ وجود ثلاثة مداخل تفضي إلىٰ تزكية الأُمَّة، هي:

- مدخل العلم والحكمة، بما يتضمَّنه العلم من معارف، وتتضمَّنه الحكمة من مناهج؛ فلا تزكية من دون علم، وإلّا أصبحت أذواقاً غير مُنضبِطة، ومحاولاتٍ اعتباطيةً. وكذلك لا تزكية من دون منهج مُطَّرِد حكيم وحاكم.

- مدخل الشريعة والنظام؛ ذلك أنَّ الجماعة لا يصلح حالها من دون نسق مرجعي تأوي إليه في تشريعاتها ومنازعاتها. فالشريعة شِرْعة للحياة بمجالاتها ومؤسساتها، والنظام حاكم للعلاقات، ومُزيح لأسباب الفوضىٰ واللانظام؛ فهذا النوع من التزكية ذو بُعْد تنظيمي ومجتمعي.

- مدخل الإيمان والأخلاق؛ ذلك أنَّ التزكية الإيمانية صمام أمانٍ لحياة الإنسان الروحية؛ ولأنَّ التزكية الخُلقية ترشيد لحياته العملية. فالإيمان والأخلاق يتكاملان، ويتطاوعان، ويُصدِّق كلٌّ منهما الآخر.

ثُمَّ ختم الـمُؤلِّف حديثه عن مقصد التزكية بتعيين بعض وسائلها الموصِلة إلىٰ التحقُّق بها، وهي: القرآن الكريم، والذكر مع الفكر، وصحبة الصالحين (ملكاوي، 2020، ص108).

ت. مقصد العمران: انطلق الـمُؤلِّف في بيانه لهذا المقصد من تنظيرات المرحوم العلواني كما أسلفنا من قبلُ؛ إذ سلك خُطَّته نفسها في بحث هذه المقاصد العليا، بدءاً بتأصيلها القرآني والنبوي، ومروراً ببحوث العلماء فيها، وانتهاءً باستخلاص التصوُّر الشمولي لها.

وقد بحث الـمُؤلِّف في قيمة العمران استناداً إلى فقهه؛ أيْ بالغوص في عناصره، وتحليلها، وتركيبها، وربطها بالحياة "التي يريدها الله للإنسان" تكويناً وتشريعاً، وقدراً وتكليفاً. فالعمران في نظره "قيمة تُحدِّد فقه العمل في الحياة الدنيا، ولا سيَّما عمل المجتمع" (ملكاوي، 2020، ص23). ومن ثَمَّ، إذا استطاعت الأُمَّة تجديد فهمه، والعودة إلى سيرتها الأُولى بخصوصه؛ فقهاً لمقاصده وغاياته، فإنَّها ستكون الأُمَّة الشاهدة على نفسها شهوداً حضارياً وإصلاحياً.

وهذا تلخيص لِما نظر إليه الكاتب في هذا الباب:

– بيان دلالة العمران في الاستعمال القرآني، والنظر إليه بوصفه حقيقة الحياة الفردية والجماعية للأُمَّة، وإعمار الأرض وإصلاحها مادياً باستخلاص خيراتها واستثمارها في ذلك، وتأكيد أنَّ القرآن الكريم اعتنى بالعمران في أبعاده الثقافية والفكرية؛ ما يُحتِّم "تطوير العلوم، وبناء المؤسسات، وسنّ القوانين" (ملكاوي، 2020، ص137) الـمُنظِّمة للعلاقات.

– الاقتصار في تأصيل مفهوم "العمران" في السُّنَّة النبوية على التصوُّر والاستعمال القرآني، إلّا في دلالته الفقهية المعاملاتية ممّا يُسمّى العمرى؛ وهي نوع من التبرُّعات المالية يُقصَد به الإعانة الـمُؤقَّتة بعمر المعطي، أو المعطى له، أو بمدَّة محدودة. وتطابُق الاستعمال النبوي مع الاستعمال القرآني لهذه المفردة دليل على إحكامها وكُلِّيتها ومركزيتها في الحياة البشرية.

– تناوُل الاستعمال الخلدوني للعمران، وعَدُّه سبّاقاً إلى فقهه، ودلالاته الحضارية الكبرى. وهذا السَّبْق الخلدوني هو ما جعل الـمُتأخِّرين عنه ينهلون من نظريته، ويستفيدون منها تثويراً وتطويراً، أو تبنِّياً لها من دون عَزْوها إليه. فالـمُتأمِّل في استعمال ابن خلدون للعمران، بوصفه مفهوماً قرآنياً، يجده ينحو به منحىً تأسيسياً لعلم جديد "يدرس حياة الناس، وما يطرأ على هذه الحياة من تحوُّلات وتبدُّلات، وما ينشأ فيها من علاقات ومؤسسات، سمّاه علم العمران البشري، أو علم الاجتماع، أو علم الحضارة" (ملكاوي، 2020، ص142–143).

حاول الـمُؤلِّف تلخيص نظرية ابن خلدون في العمران، وهذا التلخيص يُمكِن اعتصاره في ما يأتي:

– العمران الخلدوني تَجلٍّ لتراكم جهود العلماء، وفهمٌ لسُنَن النهوض والانهيار الحضاري، وتحليلٌ نقدي لمناهج التدوين والتفكير، واعتبارٌ بالطبائع الفطرية والوقائع العملية، وتجديدٌ في وضع قواعد العلوم وأسسها للنهوض بها في الحياة العملية (ملكاوي، 2020، ص142–143).

– العمران –في نظره– يتحقَّق بمنهج التكامل بين العقل والنقل، والفهم والتقعيد، والجمع بين متطلَّبات الدنيا والآخرة.

– شروط تحقُّق العمران –بمفهومه القرآني، وتأصيله الخلدوني– تتمثَّل في حرص الفرد على تقوى الله تعالى، وسعيه إلى استثمار مكنون الأرض؛ استجلاباً للأرزاق. وكذلك عدل الدولة في الحكم.

– تأصيل العلاقة بين العمران والحضارة بوصفها النتاج المادي والمعنوي للإنسان الفرد والجماعة (الأُمَّة، والدولة)، وبيان أنَّهما متلازمان؛ فلا عمران من دون حضارة، ولا حضارة في ظلِّ الخراب.

– تأصيل العلاقة الوطيدة بين العمران والسياسة والدولة؛ تأكيداً لدور الدولة التنظيمي والهيكلي؛ فهي الأداة والوسيلة لتنمية العمران في جوانبه التنظيمية، والسهر على ديمومته، والحفاظ على مُقوِّماته، استناداً إلى العدل الشامل في كل مناحي الإعمار.

– بيان علاقة الفساد والصلاح بالعمران؛ فهما يُؤثِّران فيه نهوضاً وسقوطاً، وتقدُّماً وتقهقراً، وتثويراً وإخماداً. وقوام الأمر –في نظره– هو قيمة العدل في جانبيه: المادي، والمعنوي. وقد اقترح في الأوَّل إصلاح القضاء، وفي الثاني إصلاح المعاش.

هذه هي أبرز أفكار الكتاب في فصوله الثلاثة؛ ما يَعرض صورة عامة لها، ومن ثَمَّ يُمكِن الرجوع إلى تفاصيلها واستدلالاتها في متن الكتاب.

2. القيم والمقاصد في التراث الإسلامي:

خصَّ الـمُؤلِّف الفصل الرابع ببحث القيم المقاصدية في علاقتها بالتراث الإسلامي والفكر المعاصر، مُحاوِلاً رصد تجلِّياتها فيهما، وبيان تأثيرها فيهما. وقبل خوضه في تفاصيل الموضوع، فقد ذكَّر

بالمنهجية المثلى للنظر إلى القيم الثلاث القائمة على التكامل لا التنافر؛ ما يعني أنَّ النظر في كل قيمة منها يُحتِّم على الناظر استحضار العلاقات الوظيفية التكاملية بينها وبين غيرها.

إنَّ ورود القيم في التراث الإسلامي، مقارنةً بالتداول المعاصر لها -بحسب الـمُؤلِّف- لم يكن بهذا التطابق الذي يراد له أنْ يكون، خلافاً للمقاصد؛ فهي تُعَدُّ مفهوماً مأصولاً في التراث، ومُتطوِّراً بحيث أصبح عَلَماً على عِلْمٍ قائم الذات. ومن هذا الـمُنطلَق، فإنَّ القيم هي نتيجة للمقاصد الشرعية للأحكام. وفي المقابل، فإنَّ المقاصدية وصف لهذه القيم؛ فهي ذات أبعاد غائية مُؤصَّلة في نصوص الوحي، وتجارب العلماء والـمُصلِحين.

وفي ما يأتي بيان لمضمون هذا الكمون للقيم والمقاصد في التراث الإسلامي:

- "المقاصد" مفهوم مُتداوَل في التراث الإسلامي؛ فأمّا وروده في الوحي فبدلالات مُتنوِّعة، منها: النيّات والإخلاص وغير ذلك، وأمّا استعماله في التراث العلمي للعلماء فأمر لا يحتاج إلى دليل، ولا سيّما في أبواب الأصول، والفقه، والعقائد.

- مصطلح "القيم" لم يكن مألوفاً في لغة التراث على النحو المعاصر. ومردُّ هذا الغياب، وعدم الأُلفة -في نظر الـمُؤلِّف- أنَّ العلماء استعملوا مصطلحات أُخرى يُمكِن عدّها عناوين للقيم (مثل: الفضائل، والشمائل، والأخلاق، والآداب)، وكان استخدامها غزيراً وكثيراً في مُصنَّفاتهم، ومواعظهم، ودروسهم (ملكاوي، 2020، ص175).

- تداوُل مفهوم "المقاصد" في العصر الحديث أشهرُ من نار على عَلَم؛ فقد أصبح -كما سبق القول- عَلَماً على عِلْمٍ قائم الذات، ووسماً لحقل معرفي وشرعي له قواعده، وأسسه، وتنظيراته، وتطبيقاته في مجالات التديُّن والحياة.

- ذيوع استعمال مصطلح "القيم" في العصر الحديث أيضاً، فقد عرف هذا المصطلح تأصيلاً وتنظيراً مُهِمَّين، وإنْ كان منشأ هذا الاهتمام -بحسب الـمُؤلِّف- غربياً، لكنَّ جهود الـمُنظِّرين فيه انصبَّت على تأصيله في التراث، وبعثه من جديد في صورةٍ معاصرة وجديدة، إلى أنِ استقر مصطلحاً له امتداداته في أبواب الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع، والتربية، والتعليم، وغير ذلك.

ولم يفت الـمُؤلِّف التنبيه إلى الانحرافات الاستعمالية للخطاب المقاصدي لأغراض غير مشروعة، ومآرب غير سليمة؛ ما أركب المقاصد غير مَرْكَبها، وأسند إليها أغراضاً ليست من طبيعتها، وهو ما سمّاه توظيف المدخل المقاصدي لمقاصد غير شرعية، مثل: التخفُّف من قيود النص الشرعي، والخروج عنه بالأمزجة والهوى، وصولاً إلى القطيعة معه، والاستعاضة عنه بالعقل؛ بدعوى القدرة على التشريع، وإدراك المصالح والمفاسد، والوصول إلى السعادة الإنسانية عن طريق العقل.

وللخروج من هذا المأزق، استند الـمُؤلِّف إلى المنظومة الأصولية الـمُتَّسِمة بالقاعدية والعلمية، فجعل قواعد الأصول والاستدلال الأصولي منهجاً ومسلكاً لإدراك البُعْد المقاصدي للأحكام. ومن ثَمَّ كان لِزاماً على مَنْ أرادوا استغلال المقاصد من الحداثيين لتحقيق مآربهم الولوجُ إلى ذلك عبر بوّابة الأصول التي لن تُسعِفهم قواعدها الصارمة في تحقيق ما تشرئبُّ إليه أعناقهم.

وانسجاماً مع منهج البحث، فقد اقترح الـمُؤلِّف سُبُلاً لِـما سمّاه تربية القيم؛ لإضفاء صفة العملية على تنظيراته في الموضوع، وحصر هذه السُّبُل في تعليم القيم في الأُسرة، وتعليمها في المدرسة، ونشرها في مجال الإعلام ومؤسسات الدولة والمجتمع. وبهذا يكون للقيم حضورها بأبعادها المقاصدية، بدءاً بالفرد، وانتهاءً بالأُمَّة.

أمّا الفصل الخامس، وهو الأخير، فحمل عنوان: "تفعيل المقاصد في التربية والتجلِّيات التربوية للقيم القرآنية العليا"، وفيه انطلق الـمُؤلِّف من إشارة للدكتور فريد الأنصاري، مفادها أنَّ التجديد الاصطلاحي في علم الأصول عند الإمام الشاطبي كان ذا بُعْد ومقصد تربويينِ؛ أيْ إنَّ غاية المقاصد، بما هي مبحث من رحم علم أصول الفقه، تصحيحُ الانحراف التربوي الطارئ على تديُّن الـمُكلَّف. ومن هذه المقولة، انطلق الـمُؤلِّف لبيان مناحي تفعيل المقاصد في المجال التربوي، وهذا تلخيص لها من وجهة نظره:

أ. الربط بين المقاصد والتربية هو ربط بين مُتجانِسين؛ فمن المقاصد يُمكِن استحضار قصد الشارع في الأحكام والآداب والأخلاق. ولا شكَّ في أنَّ الأصل هو مُوافَقة مقصود الشرع، وجعل هوى الـمُكلَّف تابعاً لمراد الشارع وشرعه.

ب. ضعف تفعيل المقاصد في المجال التربوي، والاقتصار على تفعيلها في مجال الأحكام العملية والاجتهاد الفقهي، وهو أمر تبديه الكتابات والتجارب المطروحة في هذا الموضوع، مع أنَّ إنعام النظر في ما كتبه الشاطبي في "المقاصد" يُجْلي العلاقة الكامنة بين المقاصد والتربية.

ت. الربط بين التربية وحفظ العقل هو أساس العمل التربوي؛ لأنَّ حفظ العقل يكون بالتعليم والتعلُّم، فلا تربية من دون تعليم وتعلُّم. ومن هنا كان التشبُّع بالتربية عن طريق إعمال العقل أحسن وأكثر فاعلية؛ فالعقل مناط التكليف، وهو وسيلة تحقيق مناطات الأحكام والتربية.

ولكي يكون التصوُّر مُتكامِلاً في الموضوع؛ فقد اقترح الـمُؤلِّف تصنيفاً للمقاصد التربوية، يُسهِّل ربط المقاصد بها، ومحاكمتها إلى المقاصد الشرعية. وفي ما يأتي سرد لهذا التصنيف:

أ. مقاصد تربوية للدنيا، ومقاصد تربوية للآخرة.

ب. مقاصد تربوية غائية، ومقاصد تربوية وسَلية.

ت. مقاصد تربوية مُصنَّفة حسب موضوعات العلوم.

ث. مقاصد تربوية مُصنَّفة حسب مؤسسات التربية والمجتمع.

ج. مقاصد تربوية مُصنَّفة على أساس القيم المقاصدية العليا، وهو ما ختم به هذا الفصل.

وبذلك يكون الكتاب قد اكتمل في صورته الأخيرة بعد دمج الفصلين الأخيرين في الفصول الثلاثة الأُولى التي شكَّلت مادَّة الكتاب الأوَّل، وبه يكون الـمُؤلِّف قد استكمل الموضوع من جوانبه النظرية والعملية.

على سبيل الختم

يُمكِن أن يُعدّ هذا الكتاب إضافةً نوعيةً إلى المكتبة الإسلامية المعاصرة؛ لِـما اتَّسَم به من دقَّة في الطرح، وجدَّة في المعالجة والتحليل، ولاقتدار صاحبه على تحقيق قَدْرٍ ضافٍ من العلاقة التكاملية بين المقاصد والقيم؛ ما يُعَدُّ وسيلةً ناجعةً في الممارسة النقدية للكسب المعرفي السابق، وتحقيق كسب معرفي مُواكِب للإشكالات والقضايا الـمُستجِدَّة الحارقة. ولا شكَّ في أنَّ القراءة الواعية لهذا الـمُؤلَّف تتيح استشراف آفاق معرفية واعدة، تُحفِّز الباحثين الجادّين على سبر غورها، وصولاً إلى تقديم إسهامات مُعتبَرة في ميادين التربية، وفلسفة القيم، وآليات بنائها وتقويمها.

المراجع:

ملكاوي، فتحي حسن (2020). **منظومة القيم المقاصدية وتجلِّياتها التربوية**، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.